تمهيد

بين غزوة بني قريظة وصلح الحديبية

يقول أ/ باشميل: «لم تعد هناك قبيلة من قبائل الوثنيين العرب عندما ظهر الإسلام إلا وناصبته العداء.

وعندما وجد هذا الدين أنصارًا أقوياء في المدينة مؤمنين يذبون عنه وعن نبيه ﷺ أكثر مما يذبون عن نسائهم وأطفالهم، تضاعفت عداوة من بقي من الأعراب على الوثنية للإسلام.

وكان هؤلاء الأعراب الوثنيون يتربصون دائمًا بالإسلام الدوائر، ويحاول الكثير منهم الإغارة على المسلمين في المدينة حاضرة الإسلام الجديدة.

الأعراب والأحزاب:

وعندما كانت معركة الأحزاب في أواخر السنة الخامسة من الهجرة ناشبة بين المسلمين، وهم لا يزيدون على ألف مقاتل من جهة، وبين أعراب نجد وقبائل الحجاز واليهود وعددهم لا يقل عن أحد عشر ألف مقاتل من جهة أخرى، كان الأعراب الوثنيون ـ بعواطفهم ومشاعرهم وقلوبهم دونما استثناء مع إخوانهم الوثنيين من قبائل الحجاز وعشائر نجد وأحلافهم من اليهود ـ يتمنون أن يكون لهم النصر الساحق على جيش الإسلام الصغير، بل وما كانوا يشكون لحظة في تحقيق هذا النصر؛ لأن كل شيء مادي يشير على نحو ساحق بأن الأحزاب الوثنية ومحزبيها من اليهود سيكونون هم المنتصرين في المعركة.

ولكن الأمر جاء على خلاف ما يتوقع ويتمنى هؤلاء الأعراب الوثنيون حيث كتب الله الفشل الذريع لمشروع الغزو اليهودي الكبير، فانحدرت جيوش الأحزاب الجرارة، وعادت إلى نجد ومكة تجر أذيال الهزيمة والعار، بعد أن فشلت ـ أمام القلة المسلمة الجبارة ـ في اقتحام المدينة، فانتصر المسلمون انتصارًا عظيمًا لم يحققوا مثله في عهد النبوة، بالنسبة لقلتهم وكثرة عدوهم، ووقع اليهود في عملهم السيء، فتم إعدام ثمانمائة من خونة بني قريظة، وعلى رأسهم محزِّب الأحزاب ورأس الفتنة والشر حيي بن أخطب النضري، وفر إلى خيبر مرعوبًا زميله في الخيانة والتآمر سلام بن أبي الحقيق، الذي تمكن خمسة من الفدائيين الأنصار من قتله وهو على فراش نومه في رأس حصنه كما سيأتي تفصيله.

وبهذا انقلب ميزان القوى في جزيرة العرب انقلابًا خطيرًا لصالح معسكر الإسلام وبصورة جعلت القائد الأعلى لهذا المعسكر ـ النبي محمد ﷺ ـ يشدد من قبضته على دفة القيادة للجزيرة العربية بأكملها، الأمر الذي ما كانت تتخيل ـ سوى حدوث عكسه ـ أحزاب الوثنية والكفر، عندما كانت لها قوات ضاربة مؤلفة من أحد عشر ألفًا، تحاصر المدينة التي لم يبلغ الجيش المدافع عنها أكثر من ألف مقاتل.

العمليات العسكرية:

كانت الدروس المستفادة من الماضي والتي وعاها المسلمون من تجاربهم عبر خمس سنوات مع الأعراب الوثنيين وكل أحزاب الكفر من اليهود، أثبتت أن العمل العسكري ـ وخاصة ضد الأعراب واليهود ـ هو السبيل الوحيد لتأمين وسلامة أمن المنطقة، وتهيئة الجو لدعوة التوحيد لتأخذ طريقها إلى العقول والقلوب بالقدر المطلوب من الحرية المطلوبة.

ولهذا ـ كما أثبتت الأحداث فيما بعد ـ قرر النبي القائد ﷺ، مضاعفة النشاط العسكري ضد اليهود وسكان البوادي من الأعراب في نجد والحجاز على السواء.

فقرر اجتثاث سلطان اليهود الزنيم ـ بقوة السلاح ـ نهائيًّا في خيبر وبقية المناطق الشمالية، كما قرر القيام بحملات عسكرية تأديبية قوية ضد الأعراب في نجد والحجاز.

خيبر آخر المطاف:

وكان آخر المطاف في هذا العمل العسكري هو غزوة خيبر التي بها تم للمسلمين تصفية العنصر اليهودي الدخيل في جزيرة العرب تصفية كاملة.

وقبل القيام بالحملة الكبرى لتصفية اليهود في خيبر قام النبي ﷺ بعشرين عملية عسكرية كانت على شكل سرايا يبثها لتأديب العرب وخضد شوكتهم، ومنها حملتان وطئ فيهما رجاله من الأنصار مدينة خيبر، وتمكنوا من الفتك فيها بملكين من ملوكها الواحد تلو الآخر، وهما: سلام ابن أبي الحقيق الملقب بأبي رافع، وأسير بن رزام». [صلح الحديبية لباشميل ١٩-٢١].

«الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا»:

يقول د/ الصلابي: «كان ﷺ يحذر كل القوى المجاورة، ويعمل لها كل حساب، ولا يغفل عن أي قوة منها، وقد صرح بعد غزوة الخندق بأن الخطة القادمة هي غزو قريش، فقد تغيرت موازين القوى، وأصبح المسلمون لهم القدرة على الهجوم أكثر من قبل، فسعى ﷺ لبسط سيادة الدولة على ما تبقى من قوى حول المدينة؛ لأن ذلك له صلة بالإعداد لغزو قريش في مرحلة لاحقة، فقد قام ﷺ خلال عام واحد ـ العام السادس ـ بغزوتين وأرسل أربع عشرة سرية غير ما قام به في نهاية العام الخامس الهجري...، وهذه الأعمال والتحركات قصد منها المزيد من إنهاك قوى قريش وإحكام الحصار، وتقليم أظفارها من خلال اقتطاع كل ما يمدها بالقوة من حلفائها [ينظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع ص١٣٩]، فقد استثمر رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ما حققوه من نجاح في صد الأحزاب وإفشال خططهم، وردهم كيد يهود بني قريظة في نحورهم، فباشروا نشاطًا واسع النطاق ضد خصومهم على جميع الجبهات، فقد ضيقوا الخناق الاقتصادي على قريش من جديد، كما نفذوا العديد من السرايا لمعاقبة

المشركين في الأحزاب من جهة، أو للثأر من القبائل التي كانت قد غدرت بالدعاة، أو ناصبت الإسلام العداء». [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣١١].

ويقول أ/ دويدار: «أخذ العرب بعد هزيمة الأحزاب، وبعد هزيمة بني قريظة ينظرون إلى دعوة الإسلام نظرة جديدة، وسرى في نفوسهم أن هذه الدعوة لابد أن تكون مؤيدة بقوة الله، وأن محمدًا ﷺ وأصحابه ﷺ لابد أن يكونوا على الحق، وأنهم قد تكون لهم الغلبة والنصر في النهاية، فأخذت القبائل المعادية تخفف شيئًا من عداوتها، وأخذت القبائل الأخرى تحاول التقرب من المسلمين، وأخذ جو من الرهبة والجلال يملأ نفوس الناس عن الإسلام ورسوله، فذهبوا يتحدثون بقوة المسلمين وسلطانهم، وبمقام محمد ﷺ وقوته ورهبة جانبه.

على أن المسلمين مع ذلك ظلوا أيقاظًا لم يُلقوا سلاحهم قط؛ لأنهم يعلمون أن أعداءهم كُثر، وأنهم لا يزالون مُحنقين موتورين، يملأ نفوسهم الغيظ من هذه الدعوة التي يظهر أمرها يومًا بعد يوم، ومن هذه الطائفة التي يشتد ساعدها شيئًا بعد شيء، فكان على المسلمين أن يظلوا أيقاظًا لكل حركة من حركات أعدائهم، وأن يكونوا دائمًا على أهبة العمل والاستعداد لكل طارئة من الأمور، كما كان عليهم أن يؤكدوا في نفوس الناس أنهم أهلٌ لما أمدهم الله به من نصر، وأن يُشعروا أعداءهم بأنهم قوة قادرة على الإرهاب والغزو، وعلى صد العدو مهما كانت جموعه، ومهما كانت قوته، حتى لا يفكر أحد من العرب ولا من اليهود في غزو المدينة، أو يؤمل في هزيمة المسلمين بعد ذلك النصر المؤزر، الذي كتبه الله لهم في غزوة الأحزاب، وفي غزوة بني قريظة.

ومن أجل ذلك لم يُلق المسلمون سلاحهم، ولم يستنيموا لأعدائهم اتكالًا على أن الله معهم، وأنه مؤيدهم بحوله وقوته، فإن الله لا يكون مع الغافلين أبدًا، ولا يؤيد المتواكلين الذين يرجون منه النصر والتأييد دون أن يأخذوا بأسباب القوة ما استطاعوا.

فما كاد الرسول ﷺ ينتهي من أمر بني قريظة في أواخر السنة الخامسة، حتى بدأ منذا أوائل السنة السادسة يعمل على إرهاب العدو في كل ناحية، فأخذ يبعث السرايا ويقود الغزوات في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب؛ ليرهب أعداءه من العرب واليهود جميعًا؛ وليأخذهم على غِرَّة وهم فرادى، قبل أن يأخذوه وهم قوة مجتمعة.

وهكذا مضت السنة السادسة ـ أو أكثرها ـ في مثل هذه المناوشات، وكان العامل البارز فيها من الناحية الحربية هو عامل المفاجأة، وأَخْذ الطريق على العدو قبل أن يأخذ أهبته ويستجمع قوته، على أن الهدف فيها جميعًا لم يكن هو المبادأة بالعدوان، فإن العدوان مبدأ لا يقره الإسلام ولا يرتضيه، إنما كان الهدف هو الدفاع الهجومي لا غير: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة].

فكل ما كان من هذه المناوشات إنما كان ردًّا لعدوان بادَى به عدو، أو إرهابًا لعدو يريد أن يعتدي.

ولقد أدت هذه المناوشات أغراضها على أتم وجه، فإنه ما كادت السنة السادسة تنتهي حتى كانت هيبة المسلمين قد استقرت في نفوس القبائل العربية فيما حول المدينة وفيما وراءها، وأخذ الجو يتهيأ لحياة استقرار وسلم بين المسلمين وجيرانهم، وصار من الممكن أن تقوم علاقة الجوار فيما بينهم على تناسي الثارات ودفن الحزازات، وعلى التعاون والتلاقي في سبيل الخير في طمأنينة وأمن».

[صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٢/ ٢٠٣-٢٠٤، ٢١١].

ويقول د/ شاكر «لقد كانت أخبار هذه الغزوات والسرايا تصل إلى الأعراب وإلى أكثر سكان الجزيرة العربية، فهاب الأعرابُ المسلمين، وعرف سكان جزيرة العرب مكانة المسلمين وقوتهم، واعترفوا بهم كقوة في المنطقة، وأصبح كل إنسان يريد أن يتعرف على هذا الدين الجديد، وبهذا تنتشر الدعوة، ويعلم أنه إذا دخل في الإسلام، فإن هناك مَنْ يحميه، وإذا هاجر إلى المدينة فقد وصل إلى مأمنه».

[التاريخ الإسلامي لشاكر ٢/ ٣٠٢].

ويقول د/ الغضبان: «لقد شهد العام السادس من الهجرة تصعيدًا عنيفًا جديدًا في عمليات المواجهة مع العدو، ولا يكاد يمر شهر دون سرية أو سريتين تضرب في الصحراء، وتفض جمعًا أو تحطم عدوًا أو تغتال طاغوتًا، وهي التي أسميناها من قبل: التربية بالإرهاب لتتناسب مع شعار المرحلة التي ابتدأت مع غزو الخندق: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا**». [البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسند أحمد ٣٠/ ٢٤٠، ٢٤١ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ٤٥/ ١٨٤ رقم ٢٧٢٠٦].

وليترجم الشعار عمليًّا حيًّا في أنحاء الجزيرة العربية كلها، وأسميناها في هذا الفصل بتربية جيل النصر بعد جيل الصبر، ونشهد حزب الله ينطلق في الآفاق باسم الله، يحمل المبادئ الخالدة، والقيم العليا يقدِّمها للخلق كافة، ويزيح كل طاغوت يحول دون وصول هذه المبادئ، ونشهد حزب الله في أفراده جميعًا، والذين تلقوا أعلى مستويات التربية الخلقية، والفكرية، والعسكرية، والسياسية، كيف ينفذون هذا المنهج، وكيف يكون واقعهم ترجمة عملية وحية لمبادئهم.

فهو جيل يقف على أهبة الاستعداد؛ ليرقى قمة البشرية، بعد أن أعيد بناؤه وتدريبه بعد أُحُد، وسقط مَنْ سقط من المنافقين، وارتقى الباقون إلى القمة؛ ليكونوا جيل الحديبية الجديد، الذي بلغ أربعة أضعاف جيل بدر، والذي أخذ اسمًا جديدًا هو أصحاب محمد ﷺ بعد أن كان موزعًا على الطبقات الثلاث: السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وهو ما سنفرد عنه الحديث في الفصل القادم ومع إهلالة شهر ذي القعدة». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٩٠-١٩١].